العرب الثقافي
الأحد 2019/12/29
السنة 42 العدد 11571

غريزة التظاهر في السلوك الإنساني

أن تقف في الضوء وتكون شخصاً آخر

عادل آيت أزكاغ
باحث مغربي

ماذا لو قُلنا إن التظاهر بالحزن تمثيل سريع يفقد للحزن قداسته؛ وإن التظاهر بالسعادة تمثيل سمج يُذهب بريق السعادة الحقيقي ويفرغ التعاسة من جوهرها ومعناها؛ وإنّ تعيساً مُبحراً في همومه بصورة غريبة ويمشي بين الناس بملامح عابسة ومغمومة أفضل من تعساء آخرين يوزعون ابتسامات زائفة عليهم!

بلا ريب، سيفطن القارئ الكريم فيما تقدّم إلى منطوق "التظاهر" ومُعطاه، وشيءٍ من معناه، وربما أيضًا ما يحمله مفهومه من دلالات، وسيرفضه البعض منّا بوحي من فطرته السليمة -من ثمّ- كنتيجة، لأننا أدركنا بطريقة معينة، لا جدواه في الحياة؛ وهو أمر قد لا يختلف حوله أغلب القرّاء المتابعين للسطور الآتية، أو ممّن ستفوتهم فرصة قراءة موضوع هذا المقال عن التظاهر. لكن، عفواً، قبل الحديث عن هذا التظاهر، لا مناص من التساؤل عن القصد منه، فما معناه؟

> يكفي فقط أن تُسلّط لفحة من شمس الحقيقة القاطعة الساطعة التي لا غبار عليها ولا مفرّ منها، على وجوه عديدة، آنئذ سترى كيف ستذوّبُ ما يعلق بها من مساحيق رديئة طاعنة في فقدان الصلاحية

هذه دعوة لتعقّب أثر إفادة كامنة فيه من خلال استحضاره للاقتراب منه قليلاً كظاهرة، وللتفكير فيه كمفهوم أندر ما يتم تداوله والتطرق إليه في ميادين الكتابة وحقولها المختلفة، عسانا نلامس نزراً يسيراً من نثار رائحته ونُرى غباره.

كانت للفنان الكوميدي الإنكليزي المعروف تشارلي شابلن (1889-1977)، نظرية ذكية في فن التمثيل، قدم خلالها عُصارة تجربته في ميدان عمله، وأبرز فيها تصوره الخاصّ لمعنى الممثل الناجح ووجهة نظره حول الكثير من التقنيات المساهمة في تطوير الصناعة الكوميدية في السينما والمسرح. ويهمّنا منها بالفعل، ما كان له في هذا السياق، من رأي قَيِّم أعرب فيه عن تعريفه -بإيجاز- لمعنىً التمثيل، على نحو مُختصر وبسيط، لكنه مُفيد وعميق مع ذلك، يقول فيه «إنَّ التمثيل -ببساطة- هو التظاهر بأنّك شخص آخر».

بناءً على هذا التعريف (بما يكتنفه من معانٍ يستدعيها ودلالات يستحثّها)، جدير بالإشارة إلى أنّ التظاهر حال، أو حالات إنسانية -على الأرجح- يتجاذب طابعها ذاك الغريب الذي يظهر في صورة المألوف، والمألوف الذي يتجلّى في صورة الغريب. ذلك أنّ التظاهر تظاهرات، وعروض وأدوار يتعاقب الناس على أدائها بوعي أو دون وعي منهم، ينشط فيها خيالهم بشعور منهم وبلا شعور في آنٍ؛ وعليه، فالمتظاهرون أنواع، فيهم المبتدئ والهاوي والمُحترف والنَّجَيْم، فيهم النجوم وفيهم الكواكب، هم الممثلون دائماً خلف الكواليس، وعلى مرأى العين في الحين نفسه، من دون مؤلف ومخرج، يؤدون تمثيلات سينمائية من غير استعانة بالشاشة، مثلما يقدمون استعراضاتهم الاحتفالية بوجوهٍ مُستعارة من دون الحاجة إلى المسرح وإعلان الظهور فوق خشبة عرضه ووقته!

هكذا التظاهر أيضًا حال تعتري فيها الإنسان -المُتظاهر- رغبة نفسيّة، تنهض أفعاله بتجسيدها، لإخفاء شيءٍ مّا وإظهار شيءٍ آخر بدَله، على النقيض ممّا هو في الحقيقة، وعلى نحو مُخالف تماماً لما هو عليه في واقع لا يُطابقه ولا يربطه بأدنى صلة به. المُتظاهر السلبي المُنقاد من خلفيّة تتوخى الهدم أكثر من البناء، يبقى إلى هذه الحدود، شخصاً يتوق إلى معانقة عنان فضاء لا يبلغه، أكثر من السير مع عابرين يخففون وطأهم بالسير في الأرض، ويعشق الكذب على نفسه والترفّع إلى درجة التكبّر والعجرفة، أكثر من التواضع في واقعه البسيط أو المعقد في حياته.

ثم إنّ التظاهر فضلاً عن ذلك، تشويه مُتعمّدٌ للسلوك الطبيعي، وتمزيق للتصرّف السليم، ولمبدإٍ من القيم الأصيلة النبيلة الفُضلى، وهو من وجهة مُختلفة، ومغايرة -تمثيل"، كما أنّه "قناعٌ"- بفلسفة أخرى. قد يكون لطيفا، طريفاً، ظريفا، أو عنيفا، حسب درجة تأثيره، تبعاً للغاية منه ونوعيّته وطبيعته. ولعلّ ما يبدو كما ألمحنا آنفاً بالاستناد إلى رأي شابلن، أن المجال الأصلي والحقيقي للتظاهر هو التمثيل؛ في المسرح وفي السينما، إلا أنه استطاع مع ذلك أن ينسلّ منهما ويتسلل بجدارة إلى كواليس البيوت وإلى منصات المنتديات والمجالس الرسمية والمنابر الإعلامية والسياسية والثقافية، وإلى مختلف الفضاءات والوسائل والوسائط الاجتماعية الافتراضية التواصلية الحديثة، هابطا منها إلى الواقع (مع جواز صحة العكس) وإلى دواليب المؤسسات وخارجها، فإلى أوصال المجتمع ثم إلى كل مكان.

إنّ التظاهر ظاهرة حقيقية متناقضة بارزة حد السفور، تحتاج -حقًا- إلى التأمّل، وتتطلّب كي تُفهم، وتُدرك، قراءة الواقع، والإمعان في رؤيته بأكثر من عينين، ذلك أن تنويعات هذه الظاهرة وتجلياتها وألوانها وأزيائها المختلفة أصبحت اليوم أكثر من أن تُحصى أو تُعَدّ، إلى مستوىً غدا فيه التظاهر شعاراً كاذباً يتوكّأ عليه ليس البعض دون أن يشعر فحسب، وإنّما وفرة كثيرة من الناس طبعا، وليس الحيوانات، لأنها -ببساطة- تتصرّف بلا تظاهر.

لهذا فالحيوانات التي لا تتظاهر في واقعها على الأقلّ، بأنها شيءٌ آخر، لها هُنا، على نحو من الأنحاء، نقطة مميزة تُحسَبُ لها كسلوك مهمّ تتفوّق به على الإنسان، المُتلحّف بإزار التظاهر في غير مجاله المخصوص. قد يجوز القول عنه إنه سمة هذا العصر الذي نفترض بدءًا، إن كانت هناك تسمية تليق به (فضلا عن كونه عصر ثورة رقمية/ اتصالية/ تواصلية) فهي بالذات عصر "التظاهر" ومُتلازمته الجديدة بل وطاعونه بامتياز كبير؛ التظاهر السطحي لبعض العباد بالحب، بالحقيقة، بالنجاح، تظاهرهم بالحزن، تظاهرهم بالجمال، بالجد، بالمجد، بالتفرّد، بالتديّن، بالأفضليّة، بالمعرفة، بالصراع، بالسلام، بالقسوة، بالطيبة، بالحاجة، بالقوّة، بالضعف، بالجهل، بالعلم، بالسعادة، بالمرض، بالتفوّق، بالتميّز، بالهيمنة، بالنفوذ، بالحظوة، بالشرف، باحتلال الوجاهة الاجتماعية... بكل ما يمكن أن يخطر على بالك، ستجده هنا أو هناك وهنالك في كل مكان لا يعير فيه الإنسان أدنى اهتمام واحترام لكل شيء خصوصي وحميمي وأخلاقي واجتماعي وإنساني، سواء أكان ذلك بالنسبة إليه أو كان إلى غيره في عصرنا هذا الذي أصبحت الغرابة من مجازاته الكبرى، المتغيّر كذلك والمتقلّب والمطبوع بسمات التحوّل السريع، وقد غدا الأنام ينجذبون فيه إلى الهواتف أكثر من المجالس، وإلى الصور التي صاروا يحبّونها فيه أكثر من الكلمات.

التظاهر كذلك هو السلوك الطاغي في حياة الناس هذه، إلى درجة أخاله معها وفيها كما لو كان متأصّلاً في غريزة وفطرة كثير من نفوسهم وسلوكاتهم، إذ قلما تجد من يتجلّى بادياً على طبيعته إلا من رحم ربك منهم، ولماماً ما تصادف من يعبّر منهم عن نفسه كما هي، من دون الحاجة إلى تحسس متى ينزاح الستار أو انتظار لحظة انقشاع الضباب وانكشاف الحجاب كي تسقط الأقنعة واحداً تلو الآخر، تباعاً، خلف تمثيلات قائمة على التظاهر في واقع الحياة، وليس في واقع تلك العتمة الخياليّة المُلهمة المنشودة في عالم الفنّ التمثيلي..!

على العموم، التعبير عن النفس بشفافية وتلقائية وصدق كما هي عارية ومكشوفة، شيء محمود، لكنه نادرا ما يحدث في العادة. حتى إذا قُيّض له الحدوث -على غير العادة- فلداع مّا جليل، كفقدان السيطرة على التظاهر مثلاً، أو لسبب طارئ أقوى من أن يُتحكّم فيه وقد يَتَمَظْهَرُ في عارض غامض معيّن زهق من قبضة الكفّ بغير إرادة من صاحبها/ وبلا رغبة من صاحبتها، مثلاً ثانياً. يكفي فقط أن تُسلّط لفحة من شمس الحقيقة القاطعة الساطعة التي لا غبار عليها ولا مفرّ منها، على وجوه عديدة، آنئذ سترى كيف ستذوّبُ ما يعلق بها من مساحيق رديئة طاعنة في فقدان الصلاحية، كأنها مسوخ هجينة.

لوحة بهرام حاجو

محنة التفكير المختلف

زواغي عبدالعالي
كاتب جزائري

شدتني قصة صحفية نشرت قبل سنوات، تدور حول توقيف شاب من جنسية عربية صنع صاروخا، فتم القبض عليه داخل ثكنة عسكرية في بلاده بتهمة الإفراط في التفكير، بعد أن قصدها ليعرض صاروخه على الضباط والقادة الأمنيين، معتقدا بأنه يقدم عملا وطنيا يستحق أعلى نياشين الدولة، وأدت بي هذه القصة إلى استدعاء العديد من القصص والمواقف المماثلة التي تعرّض لها علماء أوروبا وفلاسفتها في عصر الظلمات، قبل أن تتحرر من سطوة الكهنوت، وبما حدث أيضا مع علماء وفلاسفة مسلمين تعرضوا لمحنة حقيقية بسبب أفكارهم غير المألوفة في ذلك الوقت.

إن كل الأفكار العظيمة المستحدثة بدت ساذجة وغريبة وجوبهت بمقاومة عنيفة لخنقها وقتلها حال بروزها في بيئتها الأصلية، التي لم تنشأ على قبول الجديد والمختلف، ولم تألف التأقلم مع ما يطرأ من تغير غير تقليدي في النظم والبنى القائمة، ووصفت تلك الأفكار على أنها إما شطحة من شطحات الخيال الجامح، أو أنها مسّ من الجن أو الخبال أصاب أصحابها، وفي أسوأ الحالات -كما يروي التاريخ البشري- خروجا عن الملة وكفرا بواحا بالدين وعقائد الآباء والأجداد، أو تحديا للسلطة الدينية و السياسية المهيمنة، ثم ما لبثت أن لاقت قبولا وتوظيفا في الحياة العملية في بيئات أخرى بعيدة نسبيا في الزمان والمكان، كنتيجة حتمية لتطور الفكر الإنساني ونضوجه، واتساع إدراك العقل للظواهر من حوله، فقد بدت دعوة النبي محمد عندما ظهرت في مكة، على أنها ضرب من السحر والجنون وخروجا عن المألوف من عقائد الأولين، وقالوا عنه -عليه الصلاة والسلام- بأن به جنة، قبل أن يكتشف العالم كله عظم رسالته وعبقريته الفذة، ليتوسع الإسلام اليوم في مشارق الأرض ومغاربها غير متعارض لا مع العقل ولا مع الوجدان، لا مع حركة التاريخ ولا مع متطلبات الواقع وآفاق المستقبل.

وفي القرن السابع عشر، ظهر نيوتن بعيدا كل البعد عن المنطق والعلم والواقع عندما فكر في الوصول إلى القمر باستخدام خاصية جذب المغناطيس للحديد، فقد سوّغ له خياله القول بإمكانية تشييد جسر من الأرض إلى القمر عن طريق صنع قمرة حديدية مفتوحة من الأعلى، يجلس بداخلها رجل قوي البنية يحمل كرة مشبعة بالمغناطيس، ويقذفها باتجاه السماء لتجذب القمرة، ثم يلتقفها ويواصل نفس الحركة حتى يصل إلى القمر، وهاهم العلماء اليوم، ومنذ القرن العشرين يشتغلون على نفس الفكرة، وبمعارف وأدوات علمية وتقنية أكثر تطورا لإرساء مشروع ضخم لتشييد جسر إلى الفضاء شبيه بمصعد أو قطار، ينقل البشر إلى مرابع لم تكن في سابق الأزمان مفكرا فيها بهذا العمق والجدية.

وقد عانى غاليليو غاليلي في القرن السادس عشر بسبب قوله بكروية الأرض ومركزية الشمس، وحاكمته الكنيسة وأحرقت كتبه، واتهمته بتحدي سلطتها والخروج عن تعاليم الإنجيل، قبل أن ينصفه آخرون بعد انقشاع الغمامة التي كانت تحجب الحقائق عن أعين الناس وعقولهم، واكتشف أهل العلم وخاصته كم كان عظيما هذا الرجل، وكم كانت أفكاره صادقة ودقيقة، ويكفيه أن يعتذر الفاتيكان، وهو أعلى سلطة كنسية في العالم، سنة 2008 عن مهزلة محاكمته، في حلقة أخيرة من مسلسل الاعتذارات التي تواصلت لأزيد من أربعة قرون، وقبل ذلك، فقد عمد المتحمسون "لغاليليو غاليلي" بعد وفاته، إلى قطع إصبعه والاحتفاظ به داخل إناء، ويوجد هذا الإصبع إلى الآن محفوظا في أحد متاحف إيطاليا، وهو فعل رمزي أراد أصحابه من خلاله تكريم غاليليو الذي هدم أسوار الجهل التي حجبت بها الكنيسة أنوار العقل والعلم والمعرفة على عامة الناس، وفرضت منطقها فقط، القائم على ما جاء في الإنجيل والنظريات اليونانية القديمة، لتهبّ بعد هذه الحادثة بسنوات، رياح التفكير العلمي على العقل الأوروبي، وتنشر ثورة حقيقية قائمة على منهج وأدوات علمية وتشيع بين الناس، والجميع يعرف الآن ثمار هذه الثورة التي دفعت بأوروبا إلى تأسيس حضارتها وتثبيت أقدامها في العالم.

لذلك، فإنه من نافلة القول أن نؤكد على أن الثورة الوحيدة التي لا تفشل ولا يمكن لأيّ أحد أن يكتم أصواتها وفعاليتها، هي ثورة العقل والفكر، لأن الفكرة لا تموت بموت أصحابها، تعيش وتنتعش بين الناس كلما وجدت المناخ المناسب، في أيّ مكان وفي أيّ زمان.

إنه لطالما كان المسكوت عنه واللامفكر فيه، أبوابا موصدة لا تغري بطرقها سوى الباحثين عن الحقيقة لذاتها، الذين يهمهم فهم الآلية التي تسير بها الأشياء والعالم من حولهم، و يغريهم تتبع الحبل السري الذي يربط الماضي بالحاضر والمستقبل، فتراهم يفتحون هذه الأبواب على مصراعيها، ويدلفون منها حاملين قبسا من نور الحكمة والعقل والمنطق، غير آبهين لما قد يعلق بهم من غبار التراث والتاريخ والتخوين والتتفيه، ولا تكبح تقدمهم

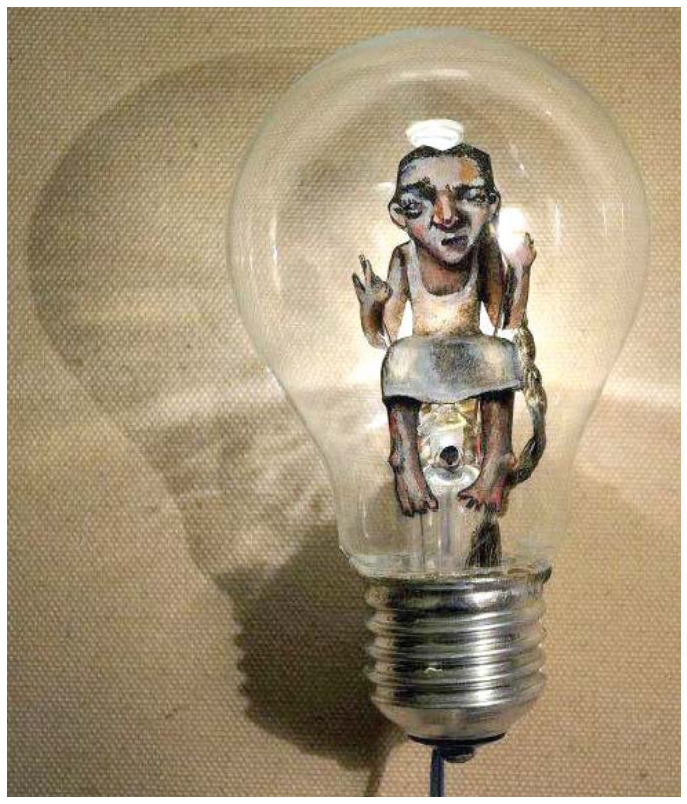

البحث عن الأفكار الجديدة (لوحة جمانة حوكان)

> الثورة الوحيدة التي لا تفشل ولا يمكن لأيّ أحد أن يكتم أصواتها وفعاليتها، هي ثورة العقل والفكر، لأن الفكرة لا تموت بموت أصحابها، تعيش وتنتعش بين الناس كلما وجدت المناخ المناسب، في أيّ مكان وفي أيّ زمان

كل الجدران الميتافيزيقية السميكة التي تحيط بالإنسان، بينما الذين لا تستفزهم الأسئلة حول الحياة وصيرورتها، والأحداث ومآلاتها، والحقائق وكنهها، محكوم عليهم بالعيش في العمى الفكري والروحي، مربوطين بقيود الأفكار المسبقة داخل دوائر وعي ضيقة لا تسمح لهم بالتطلع لما وراء إدراكهم المحدود.

السرعة المذهلة التي يسير بها العالم، في سعيه الحثيث نحو امتلاك المعرفة وابتكار طرق وفنون جديدة للعيش، تثير فينا الغيرة إذا قارناها بالرائج في مجتمعاتنا العربية، من أفكار لا زالت لصيقة بالرجعية والعبثية في أحايين كثيرة.

مقالات الصفحة 10 و14 تنشر بالاتفاق مع «الجديد» الشهرية الثقافية اللندنية والنص كاملا على الموقع الإلكتروني